3

لا تتجاهليني..
أهمية كونك أنثى

كنت أقوم بمقابلة مع صحفية عن نمو الحوار بين الأمهات وبناتهن وما يمكن أن يسبب من أسى وحزن. قالت بدون تفكير: «ما المشكلة بين الأمهات والبنات؟ لماذا تكون حواراتنا معقدة؟ لماذا علاقاتنا مشحونة؟ لماذا هي مختلفة عن الآباء والأبناء، أو الآباء والبنات أو الأمهات والبنين؟» كان علي التفكير لوهلة قبل أن يصاغ الرد الواضح: «لأن الاثنتين من النساء». ولأن كلاً منهما مهم للآخر. كل المكافآت والمآزق والأخطار المستورة التي تصف حوارات البنات والنساء مبالغ ومسهب بها. إن الكلام أو الحديث يلعب دوراً على نحو نموذجي أكبر وأكثر تعقيدًا في علاقة البنات والنساء منها في علاقة البنين والرجال. تميل البنات والأمهات أكثر من الأبناء والآباء إلى اللعب والتفاوض في علاقاتهن من خلال الكلام، وفي كثير من الحالات فكلما زاد الكلام زادت الفرص للتواصل المريح أو لعدم التفاهم وللمشاعر المؤلمة. و بالنسبة لوسط البنات والنساء فإن الحديث هو بمثابة الصمغ الذي يمسك العلاقات بعضها ببعض ـ وهو أيضاً المادة المتفجرة التي يمكنها أن تفجره إلى أجزاء.

إنه شيء مثير للفضول عندما ترى تطابق سلوك الحيوانات مع سلوكنا حتى ولو أننا لا نريد أن نرسم تشابه تام. ووفقا لجويس بولل - المديرة

العلمية لمركز أبحاث الفيل الأمبوسيلي في كينيا - فإن أنثى الفيل في البرية تتكلم أكثر من نظيرها الذكر، وهي أيضاً تفعل هذا لتتفاوض في العلاقة. ومن خلال بريد إلكتروني تلقيته من الدكتورة بولل كتبت تقول:

إن إناث الفيل ـ وليس الذكور ـ ثرثارة إلى حد ما، وفي بعض الحالات يستخدمن نغمات النداء (ولها أنواع عديدة) والتي تبدو أن وظيفتها توطيد وتثبيت العلاقات. وهذه الحالات تتضمن: التسوية بين الأصدقاء، التعبير عن التضامن مع اقتراح أو خطة فعل أو نشاط. الاستعداد المسبق للاعتناء بـ(خطف صغير، أو الترحيب بمولود جديد، أو إنقاذ صغير، أو التجاوب مع قلق الصغير أو حزنه). أيضًا اتخاذ الرأي والفعل الجماعي في الاستجابة لخطر خارجي والتحالف ضد مجموعة أخرى والهجوم أو الهروب من الخطر، والتعزيز من الرباط والتضامن مع الحلفاء خلال مناسبة اجتماعية مثيرة كالترحيب أو التزاوج.. إلخ.

أنا لا أقترح هنا أن سلوك الحيوانات مساوٍ للسلوك الإنساني، مع ذلك لقد دهشت لرؤية ملاحظات دكتور بولل أن إناث الفيلة ينطقن ويعبرن أكثر، بل ويستخدمن هذا التعبير لتوطيد العلاقات. وكما ذكرت سابقاً وكثيراً فإن الكلام والحديث بالنسبة للنساء والفتيات كمثل الصمغ الذي يمسك العلاقات ببعضها.

وبتفهم ميل النساء إلى استخدام الكلام لصنع وتعزيز الاتصال الاجتماعي فهذا يفسر لماذا كل بنت تشكو من:«أمي تنتقدني». والأم تشكو من: «إن ابنتي تتجاهلني». ولرؤية الدور الذي يلعبه الكلام في علاقات النساء، وكيف يؤدي بنا إلى هذا التذمر الواسع الانتشار، لنبدأ من خلال

النظر إلى لعب الفتيات الصغار وكيف أن استخدامهن للغة يختلف عن الأولاد الصغار.

تحدثي إلي

امرأة لها ولد في العاشرة وبنت في السادسة، لاحظت الفرق بين أطفالها عندما كانت تجهزهم للمخيم الصيفي. تقول: مع الولد «جيسن» ليس هناك أمتعة. أقول له: أي حذاء عليه انتعاله وإذا هو جاهز فورًا للخروج من الباب. ولكن مع «لوسي» فإن كل يوم هو قصة طويلة. تقول البنت: «لا أدري إذا كان علي أن أكون صديقة مع جودي أو ليزا في مرحلة السباحة». ومن ثم تستمر بالكلام بلا نهاية، تتحدث عن الوعود التي قامت بإعطائها في اليوم السابق؟ وماذا ستفكر جودي عنها لو أنها اختارت ليزا؟ كيف ستشعر ليزا لو أنها اختارت جودي؟» قد أثار هذا التباين فضول الأم وسألت ولدها جيسن «من الأولاد الذين يلعبون معك في فريق كرة السلة؟» أجاب قائلاً: «أنا لا أعرفهم، ولكني أحب اللعب معهم لأننا فزنا». قمت بسؤال هذه الأم: «ماذا لو كان على جيسن أن يختار صديق في حصة السباحة؟» قالت: «لقد اختار وانتهى، ليس هناك مشكلة، لا أسمع عن الموضوع أبداً». ولكني أسمع هذا الكلام من لوسي مهما يكن الشيء الذي تخطط للقيام به ذلك اليوم.

لوسي وجيسن ليسا فريدين، فقد وثق الباحثون الذين قاموا بدراسة الأطفال خلال اللعب أن صداقة البنات والبنين تختلف في هذه الطرق: حياة البنات، الاجتماعية مركزة بالطبيعة على صديقة قريبة، وتخلقن البنات وتقيس الصداقة القريبة والجيدة من خلال الكلام. ومن ثم فإن

البنات يستخدمن اللغة للتفاوض حول مدى القرب أو البعد الذي يردنه من البنات الأخريات. ولهذا فإن قرار لوسي حول اختيار زميلة لحصة السباحة مهم بل ومعقد.

في المقابل فإن البنين يميلون إلى اللعب خلال مجموعات كبيرة، وبالنسبة لهم فإن النشاط المبذول هو المركز. مجموعات البنين أيضاً أكثر زعامة، حيث يميل البنون غالباً إلى الاستيلاء والمحافظة على مرتبة عالية من خلال أخذ وسط المنصة، وإملاء الأوامر والأفعال على البنين الآخرين. ومن ثم فإن البنين يستخدمون اللغة للتفاوض حول مرتبتهم في المجموعة.

الكاتب مايكل جورين -والذي يقدم كثيراً من المحاضرات عن الاختلافات بين الجنسين - يشير إلى أنك لو أعطيت بنتًا صغيرة دمية فستقوم البنت عادة بالتحدث إليها، ولكن لو أعطيت الدمية للولد فإنه على الأرجح سيتظاهر بأنها شاحنة أو طائرة ـ أو يحاول خلع رأسها حتى يستطيع النظر إلى الداخل. ووفقا لمايكل فإن الدمية للصبي كمثال «شيء» لفعل شيء ما به، أما بالنسبة للبنت فإن الدمية تمثل شخصاً تتصل وترتبط به.

لاحظ الباحثون أيضاً أن البنين عادة يجمعون بين الكلام والفعل ـ أو يستخدمون النشاط الجسدي فقط ـ في الحالات التي تستخدم بها البنات الكلام فقط، مثلاً عند البدء باللعب مع طفل آخر. قام ولد بدفع طفل آخر والذي بدوره رد الدفعة وبسرعة كانا يتشاركان اللعب. ولكن هذا لا يصلح مع البنات فعندما يحاول ولد أن يدعو بنتًا للعب معه عن طريق دفعها فهي على الأرجح ستحاول الهروب منه. وقد صور هذا في رسم كاريكاتوري في صحيفة نيويورك حيث كان هناك بنت وولد ينظران إلى بعضهم والبنت

تفكر وتقول: «ترى هل أطلب منه اللعب معي؟» والولد يفكر ويقول لنفسه: «ترى هل أستطيع أن أرفسها؟»

عندما أقوم بفرض واجب على تلاميذي بمشاهدة الأطفال يتفاعلون فيما بينهم، فإنهم يلاحظون دائماً أن البنات يستخدمن الكلام حتى يبلغن الهدف، وفي المقابل يستخدم البنون الفعل للوصول إلى الهدف. مثلاً شرح إجور أورلوفيزكي الذي يعمل في الديسكوفيري زون، ماذا يحصل عندما يريد أكثر من طفل اللعب باللعبة نفسها. فقال: أراد ولد كبير لعبة كانت في يد ولد أصغر منه فحاول أخذها بالقوة. ولكن عندما أرادت البنت أخذ اللعبة التي كانت في يد البنت الأخرى حاولت إقناعها بتبديل اللعبة بلعبة أخرى أفضل. وقد استخدمت ريبيكا ذات الأربع أعوام هذه الإستراتيجية، ماريا المربية كانت تعتني بريبيكا وماريا تعلم مدى حب ريبيكا للعب والتظاهر بأنها أم وأن تأخذ مربيتها دور الطفلة. ماريا جربت شيئاً مختلفاً هذه المرة فقد قالت: أنا أريد أن أكون الأم. غضبت ريبيكا من هذا التطور ولكنها حاولت إقناع ماريا بتغيير رأيها فقالت: «هل أنت متأكدة أنك تريدين أن تكوني الأم؟ لأنه من الأكثر مرحًا أن تكوني الطفل».

إن هذه النماذج المغروزة في الطفولة تصبح الأساس للسلوك الذي يميز الحياة الاجتماعية للنساء الراشدات عن أقرانهن الرجال. وبما أن الكلام هو المادة التي منها صنعت الصداقة فإن معظم النساء يتحدثن لصديقاتهن كثيراً: أسبوعياً أو حتى يومياً. إن الرجل يحترم صديقه القريب الذي لم يتحدث إليه من شهور وربما سنين ورغم ذلك هو يعلم أنه لو احتاج إليه سيكون بجانبه. إن الرجل يلعب رياضة التنس مع صديقه

أو الجولف أو البولنغ ورغم ذلك ربما يعلم الشيء القليل عن حياة صديقه الشخصية. وإذا أعلن الصديق أنه ربما سيقوم بالانفصال عن زوجته سيكون هذا مفاجئاً. ولكن إذا اكتشفت المرأة أن صديقتها ستنفصل عن زوجها ولم تذكر لها أبدًا أنها كانت تمر بوقت صعب في زواجها هذا، سيجعلها تتساءل عن حقيقة صداقتهن. بما أن معنى الصداقة أن نخبر بعضنا بما يجري في حياتنا.

وبفهم الدور الذي يلعبه الكلام في علاقات النساء؛ فإنه ليس من المستغرب - كما أثبتت كثير من الدراسات - أن الأمهات يتحدثن مع أطفالهن أكثر من الآباء، ويتحدثن مع بناتهن أكثر من الأبناء. والنمط يتكرر عندما يصبح الأطفال بالغين. وزيادة على ذلك فإن معظم البنات يتحدثن مع الأمهات أكثر من الآباء. إذا لم تتحدثي مع أحد لمدة فإن فرصتك بأن تكوني قريبة منه أقل، ولكن أيضاً فرصة إزعاج بعضكم تكون أقل.

وزيادة على كل هذه المسؤولية التي تأتي مع الكلام فإن هناك وجهاً خاصًا من علاقات النساء جديراً بالذكر، ويفسر بعض التعقيدات بين الأمهات والبنات: نوع الكلام الذي يتشاركون به يؤدي إلى الاستغراق الكامل بالبقاء(مشمولين) أو الخوف من أن نترك ونبعد. ويبدأ هذا الأسلوب عندما تكون طفلة تلعب مع بنات أخريات.

معظم الكلام الذي تتبادله البنات مع الصديقات هو أسرار. معرفة أسرار بعضهن هو ما يجعلهن أعز الصديقات. إن محتوى السر أقل أهمية من حقيقة أنهن تشاركن السر: إن تبادل الأسرار هو طريقة لتفاوض مع الحلفاء. إن البنت لا تستطيع قول السر أمام بنات لا يُعَدَدنَ صديقات،

لأنه على الصديقات فقط سماع السر. لذا فإن البنات عندما لا يحببن فتاة فهن يتوقفن عن الحديث معها، يقمن بتجميدها خارج المجموعة. ولهذا فعندما تغضب فتاة على زميلتها خلال اللعب فإنها تندفع وتقول: «لا يمكنك أن تأتي إلى حفلة عيد ميلادي». وهذا تهديد شديد جدًا لأن البنت المنبوذة تترك معزولة. وفي المقابل فإن البنين يسمحون لأولاد لا يحبونهم أو أولاد أقل مرتبة منهم باللعب معهم بالرغم من أنهم يعاملونهم بسوء. لذا فإن الأولاد والرجال لا يشاركون ولا يفهمون حساسية البنات والنساء لأية إشارة تدل على أحداً يبعدها أو يستثنيها. (إنهم يطورون حساسية مختلفة لأية إشارة تدل على الإهانة أو التحكم).

وبمعنى آخر: إن حجرَ الزاويةِ في عالم الصداقة بالنسبة للبنت هو الاحتواء والإبعاد. إن الأول هدية نفيسة ورقيقة، والثاني: عقوبة جبارة. وهذا يفسر شعور الاحتواء والشمول والذي ينتج من إشباع الحاجة والارتياح في حوار الأم وابنتها، ويفسر أيضاً الكثير من الرعب الذي ينتج من الشعور بالإبعاد والاستثناء.

لماذا لم أكن مدعوة؟

زارت ميوريل ابنتها دينيس بعد أن وضعت طفلها الأول لمساعدتها، وقد كانت سعيدة لفعل هذا. وبعد مدة قصيرة من وصولها لاحظت ميوريل مجموعة من الصناديق المصفوفة في الزاوية. ثم أدركت أن الصناديق كانت مليئة بحاجيات جديدة للطفل. في البداية تساءلت ماذا تفعل الصناديق في غرفة المعيشة. ثم أدركت أنها كانت ولابد هدايا قد أهديت لهم، سألت الأم ابنتها: «هل كانت هناك حفلة لك بمناسبة المولود الجديد؟»

محاولة أن تترك انطباعا على أنها تضايقت. «نعم» أجابت دينيس بطريقة طبيعية: «قد قامت صديقتي بعمل حفلة لي. أليس هذا لطيفا؟».

«أوه.. نعم» أجابت ميوريل «إن هذا لطيفٌ للغاية». ولكن ما كانت تشعر به في الحقيقة هو طعنة ألم. تساءلت لماذا لم تخبرها دينيس عن الحفلة؟ والأكثر حدة لماذا لم تقم دينيس بدعوة أمها؟. في هذه اللحظة شعرت ميوريل «الأم» أنها كمثل الطفلة الصغيرة التي اكتشفت للتو أن كل صديقاتها قد أمضوا الليلة السابقة في حفلة عيد ميلاد لم تكن هي مدعوة لها. وتماماً كما أنه في أحوال كثيرة لا يكون للبنت أدنى فكرة عن سبب تجنب صديقاتها لها، فإن الأم لم تستطع فهم لماذا لم تكن مدعوة للحفلة؟. وإذا كانت قريبة بما يكفي لأن تأتي وتساعد عند ولادة الطفل، لماذا لم تكن قريبة بشكل كاف حتى يتم شملها بالاحتفال؟

دينيس لم تقصد أن تجرح مشاعر أمها عندما لم تضع اسمها على لائحة المدعوين. لم يخطر ببالها فعل ذلك، وعند كتابتها للائحة قد فكرت بصديقاتها فقط. ولو أن أحدًا أخبرها أن أمها ستتألم لكونها قد أبعدت لكانت دينيس قد دعتها. وربما أنها شعرت أن سن أمها لن يتلاءم مع سن الحاضرات. وموقف كهذا من الصعب اجتنابه حيث تكبر البنات وتتوسع دائرتهن الاجتماعية إلى ما بعد أمهاتهن. إن الاستبعاد المحتوم والذي لا يمكن تجنبه إضافة إلى أهمية الاحتواء بالنسبة للنساء هي بالتأكيد تعقد العلاقة بين البنات والأمهات.

أدخليني

إن الشعور بالنبذ والاستبعاد من الممكن أن يكون الخلاف الأساس والعلة بدون أن يذكر الموضوع أبدًا. قالت لي جوليا عن مدى ما تسببه لها أمها من

إحباط - : «إن أمي دائما تحتاج اهتمامًا مني أكثر مما أستطيع إعطاءَها. ولكنها تقول إنه ليس هناك حاجة إلى إعطائها الاهتمام الزائد.. وهذا يجنني». وعندما أواصل في السؤال عن التفاصيل فإنه يصبح من الواضح أن نوع الاهتمام الذي تريده أم جوليا يختلف عن النوع الذي تعترض عليه جوليا نفسها. مثلاً جاءت أم جوليا لزيارة أسبوعية، وقد شعرت جوليا بأن أمها غير سعيدة وعابسة خصوصاً عندما يكون تركيز اهتمام جوليا على ابنتها ذات العشرة أعوام. وعندما سألت جوليا أمها ماذا كانت المشكلة؟ اعترضت أمها «لا شيء.. لا شيء». ولكن جوليا كان لديها الدلائل، فإن تعابير وجه أمها ولغة جسدها تبين أن أمها منزعجة. ووقتها قالت أمها : «توقفي عن إبداء الاهتمام الزائد بي».

كان هذا مغضبًا جداً لجوليا لأنها تعلم بأن أمها أرادت الاهتمام، ولكن كلمة «اهتمام» لها معان كثيرة في هذين السياقين. عندما تكون جوليا مشغولة بابنتها فإن أمها ربما تَظُنُّ شيئًا كهذا: «لقد قطعت كل هذه المسافة وزيارتي قصيرة ومع ذلك فإن ابنتي لا تلاحظ وجودي هنا. ربما كان أفضل أن بقيت في منزلي». و «الاهتمام» يعني في هذا السياق التحدث إليها وفعل الأشياء معها، جعلها تشعر بأنها مهمة. وفي المقابل عندما تقول أم جوليا: «توقفي عن إبداء الاهتمام بي». فهي تدافع عن نفسها ضد ما تفهمه كنقد ـ أو نوع اهتمام سلبي. وربما هي تعني: «إذا لم أقل إني أشعر بالإهمال، لا أستطيع أن أكون مسؤولة عن شعوري بهذا الشعور، إنه ليس من العدل أن تلوميني على أشياء ضعيفة مثل لغة الجسد وتعابير الوجه». وفي هذا السياق: «توقفي عن إبداء الاهتمام بي». يعني في الواقع «توقفي عن التدقيق بي».

أظن بأن أم جوليا شعرت بالوحدة عندما ركزت جوليا اهتمامها على ابنتها، ربما يبدو الأمر سخيفا أن تتنافس امرأة بالغة على الاهتمام مع طفل. ولكن الألم الذي يأتي مع الاستبعاد لم يأخذ حقه من العناية وهو غير مبرر منطقيا. ولهذا لا يفتح الموضوع أبدا عندما تتكلم جوليا مع أمها. و من المحتمل أن أمها لن تكون سعيدة إلا إذا كانت محط الاهتمام في كل الأوقات. ولكن من المحتمل أيضا أنها لو كانت محط الاهتمام لمدة طويلة ربما لكانت أكثر راحة في التراجع إلى الخلف بعض الوقت. وعادة عندما تزور الأم الابنة التي لديها عائلة فإن الابنة غالبا ما تكون مدفونة بالمسؤوليات ولا تستطيع تسلية أمها. ولكن ربما يستحق الأمر محاولة تخصيص يوم أو يومين من الزيارة خصيصا لها.

بنت أبيها

إن العائلة هي أول مجموعة نلتقي بها في حياتنا. وفي وجوه كثيرة تبقى هي أساسنا، وإذا كانت الأمور تسير بصورة جيدة فإن العائلة هي الحصن ضد العالم العدائي، مكان تجد فيه المأوى والراحة. ولكن إذا كانت العائلة نفسها تجعلك غير سعيد فإنك ستشعر أنه ليس هناك لك مكان لتختبئ فيه أو تشعر أنك تسقط من مكان ولا تستطيع التمسك بشيء.وبالنسبة للأم فإن هذا من الممكن أن يترجم على أنه مراقبة قريبة للتحول في صفوف العائلة. وشعورها بالإهمال يزيد من غضبها. في بعض العائلات يكون للأم والابنة حلف يستبعد منه الأب والأخ. وفي عائلات أخرى أو «أوقات أخرى» فإن الأم تلاحظ بأن البنت تتحيز لأبيها. تاركة الأم في الخارج. وعندما يصبح هذا الرفض شيئا مستديما في تفاعلات العائلة، فإن استياءها يقسو ويتحجر كمثل الندبة لجرح قديم.

كنت واحدة من هؤلاء البنات التي هامت بوالدها، وقد كنت في الغالب غاضبة من أمي. وقد رأت أمي بوضوح أنني أفضل والدي، وقد أغاظها ذلك دائماً. وحتى إلى نهاية حياتهما الطويلة عندما لم أعد غاضبة منها، وبدلاً من ذلك أسرفت على أمي بنصيب الأسد من اهتمامي. هدايا متكررة، وتعابير حب نابضة بالحياة. لكن تحالفي القديم مع والدي وانزعاجها من هذا التحالف لم يكن أبداً بعيداً عن السطح، ويمكنه الاصطدام بأي احتكاك بسيط. مثلاً، في مرة اتصلت بمنزل والدي وقد قاما كلاهما بالرد على الهاتف من جهازين مختلفين، وبمجرد سماع والدي لصوت أمي أعلن قائلاً: «سأضع السماعة حتى تستطعن الحديث». ثم علقت أمي قائلة: «أنا أعرف أنك تفضلين التحدث لوالدك». وقد كانت على صواب ومازالت مغتاظة مما أدركته بوضوح جلي كتفضيلي له. وفي المقابل فإن والدي قد تطوع بترك المكالمة بدون أية دلالة على أنه يمانع في أن أمضي النصف ساعة المقبلة في الحديث مع والدتي وليس معه ـ أو أنه في الحقيقة هذا ما كان يحدث في كل مرة أتصل بها.

عندما كانت أمي في الثانية والتسعين وأبي في الخامسة والتسعين كنت أنا وأمي في منتصف ما يصفونه بمكالمة هائمة أو مشتتة، وتبادلنا قصصاً بالصدفة. أعلمنا بعضنا بأمور حياتنا الشخصية وحياة عائلاتنا وأيضًا عن صديقاتنا. وتطرقنا مجددًا للأشياء المحبطة الصغيرة التي كانت قد ظهرت منذ حوارنا الأخير. قالت أمي: «طلبت من والدك أن يحضر لي شيئاً أشربة وبعد ساعة وجدته جالسًا على مكتبه. سألته ماذا حصل لشرابي؟ وأجابني بأنه قد نسي.! فقمت أنا بتحضير الشراب لنفسي» لقد كانت شكوى رقيقة ليس بها مرارة أو قسوة. وقد كان علي أن أدعم هذه

الشكوى بقولي شيئاً كهذا: «ذلك الرجل.. ماذا يمكنك أن تفعلي؟ إنه كثير النسيان». ولكني لم أقدم أي دعم لشكواها بل أنبتها قائلة: «أمي.. أبي لا يستطيع أخذ خطوه بدون جهاز المشي وحتى عند استخدامه فهو يجد صعوبة في الإبقاء على توازنه، بالإضافة إلى أنه يتألم مع كل خطوة يخطوها. لا يجب عليك أن تطلبي منه أن يحضر لك شيئاً أو شراباً».

الآن انتقل انزعاج أمي من والدي إلي، قالت أمي: «كان علي معرفة أنني لا أستطيع قول أي شيء لك. أنت دائماً تتحيزين بصفه، في عينيك هو لا يخطئ أبدًا». وكان علي الاعتراف بأنها كانت على حق.

قد تشاركت أنا ووالدي بولع حب الكتابة، وفيما كبر سنه وتقلص نشاطه الجسدي فقد أمضى معظم وقته بكتابة الرسائل الطويلة للناس، إضافة إلي. كنت مسرورة جدّاً بهذه الرسائل وقد أجبت بود وحنان. لقد أنهيت كتابة واحدة من الرسائل بالتعبير عن مدى حبي له، وما سبب هذا الحب، وقد استخدمت كلمة «الهيام». وعندما تلقيت رسالة منه بعد ذلك مباشرة توسل فيها والدي بألا أكتب له رسالة مشابهة مرة أخرى، لقد أغضبت الرسالة أمي بشدة لدرجة أنها حولت حياته إلى تعاسة وانتقام. لقد اعتقدت أن هذا الأسلوب المليء بالطاقة والقوة كان فريداً ويدور في عائلتي فقط. ولكني كنت مخطئة فقد سمعت من تلميذة لي عن قصة ذكرتني بقصتي. قالت التلميذة: «إن أمي تغضب مني عندما أتشاجر معها، وفي العادة يتحيز والدي إلى صفي وهذا يغضب أمي كثيراً. توسلت إليه بألا يفعل».

أخبرتني نساء كثيرات عن أمثلة مشابهة في الحوارات التي تدور في عائلاتهن، وفي القصة الآتية وصفت إحدى تلميذاتي حواراً دار بينها وبين

والدتها وربما يعتقد القارئ بأن ملاحظة أمها غريبة ومفاجئة، لكنها من الممكن أن تفسر باستخدام المثال النموذجي الذي وصفته سابقاً.

كانت كارا قد حضرت من الكلية إلى المنزل بمناسبة عطلة عيد الشكر. ومما هو متعارف عليه في العائلة أن تذهب هي وأمها للتسوق في الجمعة التي تلي عيد الشكر مباشرة. وبينما كانت كارا وأمها تتحدثان في أمور أخرى، ذكرت كارا أن والدها قد أخبرها بأنه لن يذهب للعمل في يوم الجمعة. سألت أمها: «لماذا لا؟» «ما الذي سيقوم بعمله؟»

أجابت كارا: «لا أدري.. سيبقى في المنزل على ما أعتقد».

قالت أمها: «لفعل ماذا؟ إزعاجنا؟!»

قالت كارا: «لا أدري ماذا تعنين بكلمة « إزعاج» إن وجود والدي حولنا مسلٍ للغاية».

«حقا؟» أجابت أمها

«تماما» استمرت كارا في الكلام :» أعتقد أنه مسل جدّاً».

ردت الأم:«هل تعتقدين؟» وقد دلت جملتها على أن تقييم ابنتها كان متوقعًا.

فيما بعد سألت كارا أمها لماذا قد ردت عليها بشكل سلبي للغاية عند علمها بخبر جلوس والدها بالمنزل في يوم الجمعة. فشرحت أمها أنه بما أن والدها يكره التسوق فإنه سيرغب في بقاء ابنته في المنزل أيضًا حتى يتسلى هو وهي. وبما أنها افترضت أن كارا سوف تختار رفقة والدها على رفقتها فإن وجوده سوف يقطع الوقت الثمين الذي ستقضيه مع ابنتها . وما

إن تقتنع الأم بأن ابنتها تفضل والدها عليها، فإن أي مدح للوالد سيقابل بالاستياء ـ وبالخبث والقسوة ـ لأن هذا يعزز الصورة والانطباع بأن ابنتها وزوجها في حلف مع بعضهما تاركينها وحيدة.

خارج الدعابة

علقت كارا مفسرة حبها في قضاء الوقت مع والدها وقالت: «إن وجود والدي حولنا مسل للغاية». لقد صدمت من كثرة التعليقات نفسها التي سمعتها من نساء كثيرات. مثلا قالت واحدة «إن والدي مسل للغاية.. إنه يضحكني كثيراً». أنا أحب أن أكون حوله وأحب خفة ظله. وكلما كان الأب ذا شخصية مسلية ومرحة كان من المرجح أن يؤدي هذا الرابط إلى استبعاد الأم. وقد وثق الباحثون بأن معظم الوقت الذي يقضيه الأب مع أولاده يكون مكرسًا للعب بدلا من قضائه في الكدح على العناية اليومية. (وهناك بالطبع استثناءات كثيرة).

وقد وصف رجل وجد نفسه يقوم بدور الأب فجأة تأثير هذا المثال على الأم بطريقة مفصلة ومؤثرة في الآتي:

قام بوب شاكوشيز وزوجته «سي» بتبني بنت أخت زوجته، التي توفيت من مرض السرطان. وصف بوب – في مقاله المؤثر – التأثير الذي حصل لعلاقتهما جراء تبنيهما للبنت . وضح بوب كيف أن نزعته وميله بأن يأخذ دور رفيق اللعب بدون قصد جعل زوجته تشعر بأنها مستبعدة. قال:

في الخريف الأول بدت أدوارنا وهويتنا الأبوية كما لو أنها تحولت إلى الأبوية النمطية. لقد كنت شارلي المسلي، الرجل المرح واللعوب. المتفرج الذي

يمكن اختياره شاهداً للدفاع. سي كانت من يفرض النظام والانضباط، الأنثى القوية الواقعة في فخ الواجب المقدس للدم، والتي خدعت بصراحة وبمكر من شريكها. وبسرعة بدأت تصدق سي بأنها تستبعد وتترك وحيدة بتعمد. حتى لدرجة شعورها بالحرمان الجسدي. عندما دغدغت الطفلة قالت منتحبة ذات يوم «إنها تنال اللعب الآن بدلاً مني» وقد صدمت عندما أدركت أنها على صواب، إنه من الواضح أن من خلال محاولته لأن يكون أباً جيدًا لابنة أخت زوجته، لم يكن ينوي أن يستبعد زوجته من لعبهم ولا أن يحرمها من الضحك والاهتمام وهي المتعة الخالصة والتي كانت سابقًا لها. ولكن هذا ما حصل. إن هناك طبقات من السخرية والظلم في هذه النتيجة. إن اختلال التوازن الشديد في الأدوار الذي أخذه هو وزوجته ـ هو حصوله على العمل المسلي «شارلي المرح» وهي حصولها على دور «الأنثى القوية والمعطاءة» وبافتراض مقدار العناية غير المتجانس ـ كل هذا أدى إلى أن تعاقب بواسطة استبعادها من وقت اللعب.

أخي

تشعر كثير من الأمهات بالاستبعاد بسبب تفضيل البنات لآبائهن وبالمقابل تشعر كثير من البنات بالنبذ بسبب تفضيل الأمهات للإخوة الذكور. مثلا أخبرتني امرأة كم أحزنها عدم تعرف أمها عليها في نهاية حياتها. ثم أضافت: ولكنها لم تتوقف أبدًا عن التعرف على أخي.وبشكل مدهش مرت امرأة أخرى بتجربة شبيهه عندما كانت أمها على فراش الموت، «لقد كنت الوحيدة التي لم تستطع أمي التعرف علي. قد علمت جيداً وعلى نحو كامل من كان إخواني. ولكن بشكل أو بآخر كانت مقتنعة بأني لست ابنتها، وأنني نسخة عن ابنتها وأنني كنت أحاول إيذاءها!»

إن الرعب الشائع بين النساء بسبب نقد الأمهات المتكرر لهن يأخذ صفة لاذعة عندما تدرك البنت أن أمها تتخذ موقفاً أقل انتقاداً تجاه الأخ. امرأة قامت بعمل حفلة حتى تؤكد هذا الانطباع. كانت تقف بجانب أخيها في حفلة اجتماع شمل العائلة، تقدمت الأم منهما وقامت بتحية ابنتها بالطريقة الاعتيادية وقالت: «ما هذا الذي على جلدك؟» «ما بال شعرك؟» «لقد زاد وزنك». ولم تلاحظ البنت أي شيء غير اعتيادي ـ ولكن أخاها قد لاحظ. سأل الأخ غير مصدق: «هل تفعل هذا دائمًا معك؟» وبسماع دهشة أخيها أدركت هذه المرأة أن أمها تترك تفحص المظهر لابنتها وليس لولدها.

امرأة في السابعة والستين كتبت لي بريداً إلكترونياً : «مازال عندي مشكلة في علاقتي مع أمي.» والمشكلة كانت تفضيل أمها لولدها. قالت المرأة : «أخي كان نور عين أمي. لم أستطع أبداً أن أصل إلى المستوى الذي تريده أمي. كان الوضع دائماً.. لا تفعلي.. ليس عليك فعل هذا.. لماذا لا تكوني مثل... ولكن أن أكون أنا نفسي كان شيئاً مرفوضاً». إن تحيز أمها لأخيها امتد إلى عائلة الأخ، «حتى الهدايا التي تهديها لأطفال أخي كانت أفضل وأغلى من الهدايا التي تهديها لأطفالي. لقد دفعت رسوم مدرستهم ولكن ليس أطفالي. حتى أنها تعطي أخي وزوجته عشرة آلاف دولار كل على حدة هدية سنوية. ولكن ليس لنا». وبينما كنت أقرأ كلام المرأة توقعت أن تكون الأم مازالت على قيد الحياة ولكنها في نهاية الرسالة قالت المرأة: «بالطبع لقد رحلت الآن. ولكن الآثار تبقى». «أنا لا أستطيع أن أتخلص من هذا الحزن أبداً وأعتقد أنني سأذهب إلى قبري وأنا أحمل هذا الحمل الثقيل على قلبي».

(هذه المرأة تعلمت درساً من تعامل أمها السابق حيث خدمها جيداً في تربيتها لأطفالها والدرس كان أن تعامل أطفالها بالتساوي ولكن أن تعطي ابنتها زيادة قليلا).

حتى ولو كان تفضيل الأم ليس واضحاً أو مفرطاً، فإن كثيرات ممن لديهن إخوة يشعرن بالألم من حب أمهاتهن غير الكامل، وهو يزيد ويقوى عند المقارنة بين تعامل أمهاتهن مع الإخوة الذكور. هن يشعرن كما لو أن الإخوة الذكور يستولون على خشبة المسرح في العائلة بينما تترك البنات خلف الكواليس.

مشهد غير مرئي

هناك طريقة أخرى تشعر من خلالها كثير من البنات بأنه يتم دفعهن إلى الجانب عند مقارنتهن مع الإخوة. وبالنسبة لإخوانهم وهذا أيضا يعكس الموقف المنتشر تجاه المرأة في مجتمعنا، وهو الميل إلى توقع الشيء الكثير من المرأة، وليس من الضروري إظهار أي امتنان لذلك.

إن «بيث» معالجة عائلية في مكتب خاص. وفي يوم تلقت اتصالاً من والدتها – التي قالت: «لقد حجزت لزيارتي، وسأصل في الساعة الثانية، هل علي البحث عنك في مكان استلام الأمتعة أم في الخارج عند البوابة».

قالت بيث: «إن هذا سيكون صعبًا يا أمي.. فأنا لدي مواعيد طيلة هذا المساء. ثم قالت مشيرة إلى أخيها لماذا لا تسألين روني؟ فأجابت أمها: «إنه يعمل».

إن جزءًا من الاختلاف من موقف أمها تجاه عمل بيث وعمل أخيها ناتج وبلا شك من اختلاف المحيط الذي يعملون به طيلة يومهم. الأخ يذهب

إلى مكتب في مبنى في مركز العاصمة، بينما بيث ترى المرضى في مكتب في منزلها. ولكن سبباً آخر أيضاً هو ببساطة افتراض أمها عن الرجال والنساء. لقد اعتبرت أمها دائما أن عمل بيث كان نوعًا من الهواية. وغير مطلوب لإعالة العائلة، فقط مجرد شيء بيث تختار فعله في أوقات فراغها. وخصوصًا أن كل ما تفعله هو الجلوس والتحدث للناس. إن تجربة بيث هنا تعكس تجربة كثير من النساء، حيث يشعرن بأن أمهاتهن لا يقدرن أو يلاحظن إنجازاتهن المهنية. ولكن هناك شيء آخر يدور هنا. إن العمل الذي تقوم به النساء غالبًا ما يكون محجوبًا ولا يأخذ حق قدره. وهذا يدور بنفس الطريقة في العائلة تمامًا كما يدور في العالم الخارجي. الوجبات تحضر.. البيت ينظف.. ملابس الأولاد تشترى وتغسل..كله يدور في روتين وأساس لا ينتهي. إنه من النادر أن يقدم أفراد العائلة اعترافاً ذا معنى، وبرغم ذلك فهم يلاحظون عندما لا يتم عمل هذه الواجبات. كثير من الآباء في وقتنا الحالي يقومون بهذه الأعباء.. نعم.. ولكن عندما يفعلون فإن الناس من داخل العائلة وخارجها يلاحظون ويصفقون. ولكن عندما تفعله الأمهات فإنه ببساطة جزء من الصورة التي تمثل منظراً طبيعياً.

على النساء التوقع أن عليهن العطاء السخي وغير الأناني للآخرين، وأن تكون ردة فعلهن الخيبة والغضب عندما لا يحصلن على هذا العطاء. أو عندما لا تستطيع النساء إنجاز ما هو متوقع منهن. قالت لي إحدى النساء لماذا كانت أمها مهمة جدًا بالنسبة لها: «إن لديها خاصية وهي .. إرم أي شيء في يدك واركض للمساعدة». والمشكلة هي أن أفراد العائلة بما فيهم البنات يعترضون إذا لم توقف الأم ما بيدها وتهب للمساعدة. مثلاً كونك موجودة في المدينة عند زيارة فرد من العائلة..أو اللقاء في المطار.. أو مراقبة أطفالهن والاعتناء بهم، بينما يذهبن للتسوق. وكثير

من الأمهات يتوقعن من بناتهن المساعدة بطرق عدة لا يمكن أن يطلبنها من شخص آخر حتى أولادهن الذكور.

فقط اسأل مرة أخرى

كان لليا شقيق وشقيقة، وقد قامت بحجز رحلة سفر لأمها ذات السبع وثمانين عاماً من فلوريدا إلى ميلواكي لحفل لَمَّ شمل العائلة. بدأت بإرسال بريد إلكتروني إلى أختها وأخيها وبنتها تسأل إذا كان يستطيع واحد منهم مرافقة الوالدة في الذهاب وأنها سترافق الوالدة في العودة. وأجاب الثلاثة بأنهم لا يستطيعون. وكان لدى كُلٍّ أسباب جيدة للرفض.

في الحقيقة كان لابنتها إيرن سببان مهمان، الأول: أنها كانت لا تستطيع أخذ أيام إجازة من عملها، والثاني: أن صديقتها كانت على وشك وضع طفلها وإيرن كانت ممرضة وقد وعدت صديقتها بالحضور وقت الولادة. أعادت ليا الطلب، وبما أنها لم تود أن تقوم برحلتين كاملتين. طلبت هذه المرة ولكن فقط من ابنتها. وبمعلومات جديدة هذه المرة فقد تطوع عمها بتعويض الدخل الذي ستفقده إذا أخذت أيام إجازة. هل سيكون هذا ملائمًا لها حتى تذهب مع الجدة في الرحلة؟ ومرة أخرى فسرت إيرن أنها لا تستطيع حتى لو عوضها عمها عن خسارة الدخل، فمازال هناك مسألة وعدها ورغبتها في الحضور في حالة دخول صديقتها في المخاض. مر أسبوع أو أكثر وقد كانت ليا تحاول جاهدة أن تمتنع عن الطيران في رحلتين مختلفتين بين فلوريدا ووسكونسون خصوصًا أنها تبلغ من العمر السادسة والستين. لذا فقط لجأت إلى إيرن مرة أخرى حريصة هذه المرة بأن تستهل طلبها بتنازل صادق فقالت: «أنا آسفة إنني أسألك مرة أخرى. أنا لا أود أن أشعرك بالذنب، أنا فقط أطلب». إيرن شرحت مرة أخرى

لماذا لا تستطيع القيام بما تطلبه أمها منها ولكنها استمرت واحتجت قائلة: «أنت تقولين لا أشعر بالذنب ولكن أليس واضحًا أنني أشعر بالذنب عندما تصرين على الطلب مني». أدركت ليا أن ابنتها على حق ولم تعد الكرة ثانية. وكررت الطلب من أختها وأخيها، وقد تقبلت رفضهم بدون نقاش. كان عقلها يعود دائمًا للتفكير بالطلب من ابنتها. لقد نظرت إلى أسباب ابنتها على أنها قابلة للتفاوض. أدركت ليا أنها كانت تتوقع من ابنتها أن تساعد بطريقة لم تكن تتوقعها من الآخرين. وكانت قد أهملت الرسالة الخفية المفهومة من إلحاحها في الطلب. وبالرغم من أن كلماتها قالت: «لا تشعري بالذنب». لكن حقيقة أنها ألحت وكررت السؤال والطلب تفهم على نحو كهذا: «هذا شيء أتوقعك أن تفعليه».

وبتساؤلنا عن سبب توقع الأمهات والبنات من بعضهن البعض أكثر مما يتوقعنه من الآباء أو الإخوة، فقد رجعت للبحث الذي أجريته لكتابي «الحديث من التاسعة للخامسة». عن كيفية تحدث الرجال والنساء، وكيف يتم التواصل بينهم. فقد لاحظت النمط الآتي في مجال العمل: مهما كان منصب المرأة عاليًا في السلسلة المهنية؛ فإنها تتلقى احتراماً أقل من الرجل الذي بمكانتها. إن الناس يجدون المرأة سهلة المنال، و أقل تهديداً من الرجل الذي يشغل الموقع نفسه. وقد جربت هذا مرات عديدة بنفسي، مثلاً: تلقيت مرة في يوم الأحد ـ وهو يوم إجازة ـ مكالمة من طالبة في جامعتنا من برنامج حملة الدكتوراه، وكان لديها أسئلة عن الأطروحة التي تكتبها. قمت بالإجابة عن أسئلتها مدة ثم قلت لها: إنه بالرغم من أن النصائح التي قدمتها لها تعكس أفضل آرائي، إلا أن عليها تقديم هذه الأسئلة للأستاذ الذي يدير أطروحتها. فقالت: «لا أريد إزعاجه في يوم الأحد في البيت!!».

وتماماً كما يحصل في حياة المرأة المهنية فإن الأم ينظر لها على أنها سكرتيرة دائمة الوجود ومتوفرة للمساعدة، ويمكن اعتراضها وإعاقة جدولها. كثير من الأمهات يأخذن هذا الدور بمحض إرادتهن. علقت امرأة لديها بنتان بالغتان، بأنها تترك هاتفها المحمول مفتوحاً دائماً في حال احتاجت واحدة من البنات إليها. ولكن الاستعداد واللهفة للمساعدة في أي وقت لا يمنع الشعور بالألم عندما يقبل فرد من العائلة هذه المساعدة على أنها واجب. وقد برز هذا بشكل جلي من الشكاوي التي أسمعها من النساء عن بناتهن الراشدات، حيث تشعر الأم بأنه يتم استغلالها، وتعامل بدون الأخذ باعتبارها. هذا من الممكن أن يكون من خلال مواقف كهذه: ألا تقوم البنت بعمل خطة مسبقة مفترضة أن أمها ستكون موجودة عند احتياجها لها، مثل: تغيير تاريخ لموعد معين في آخر لحظة وبدون أي تفسير، أو ببساطة التكلم بطريقة رفض: «أوه يا أمي ..إنك تقولين هذا دائماً». مثلا قالت امرأة: إن ابنتها قد دعتها للانضمام إلى حفلة عشاء لواحدة من الصديقات، وأنها ببساطة أرادت إكمال عدد الكراسي على طاولة العشاء. ولكن عندما غير أحد المدعوين خططه في آخر لحظة فإن ابنتها قامت ببساطة بإلغاء دعوة أمها. وبالنسبة للبنت فإن الأم كانت متوفرة و حاضرة بسهولة ومستغنى عنها براحة تامة.

لماذا لا تقولي ما بنفسك؟!

كما رأينا في الفصل السابق فإن غيظ البنات يزداد من نقد الأمهات، خصوصاً إذا كان بشكل غير صريح. والشيء نفسه ينطبق على ردة فعل البنات عندما تقوم الأم بتوقع أشياء منها بغير تحفظ. ولكن عدم

الصراحة بتلميح ما تود أن يفعله شخص آخر هو شيء شائع بين النساء الأمريكيات. (وفي كثير من الثقافات هو شيء شائع بين الرجل والمرأة) ويعمل بشكل جيد عندما يوافق المتحدث والسامع على استخدامها.

أم سلفيا كان لها مزاج خاص بالبطاطا المشوية. هي تحبها ولكن فقط إذا كانت طرية جداً، ونادراً ما كانت البطاطا طرية بالدرجة الكافية لها. وفي أي وقت كانت تطلب فيه البطاطا المشوية في المطعم كانت تجتهد في التأكيد للنادل بأنها تريدها مطبوخة إلى آخر درجة. وعندما يصل الطبق لها فإنها تقطعها بالسكين، وتسع من أصل عشر مرات تشتكي إلى من يرافقها بالعشاء. «إنها صلبة، لقد طلبتها طرية». ولكنها لا ترسلها للطباخ أبداً مفضلة أن تبقيها وتستمر في الشكوى. وعندما تكون سلفيا مع أمها فإنها تقوم بمناداة النادل بنفسها وتطلب بطاطا أطرى. لقد كانت متأكدة أن هذا ما تريده أمها وهذا ما تتوقعها أن تفعله. ولكن جاء الوقت الذي قررت فيه أنها لا تريد فعل هذا مرة أخرى. لأنها قد غضبت من أن أمها توقعت منها أن تخمن ما تريده منها. واستنتجت سلفيا أن أمها تستحق أن تأكل بطاطا قاسية لأنها ترفض أن تقول ما تريده بشكل مباشر.

سمعت من امرأة تدعى نانسي عن مدى شعورها بالإحباط لأن أمها لا تقول بصراحة ما تود أو ما تفكر به. مثلاً عادت نانسي إلى منزل والديها في الخريف حتى تساعد أمها التي كسر معصمها. ولكن عندما عرضت نانسي على أمها أن تطبخ هي طعام العشاء؛ اعترضت أمها وقالت: إنها لا تود أن يتسخ الفرن بما أنها لن تستطيع تنظيفه بمعصمها المكسور. أكدت لها نانسي أنها ستقوم بتنظيفه في حال اتساخه، وأجابت أمها: بأنها لا

تمانع في أن تنظف فرنها بنفسها. ومن هذا فهمت نانسي الرسالة وهي: أن أمها لا تريدها أن تقترب من مطبخها. يبدو وكأن الأم فهمت إيماءة نانسي بالاتصال على أنها محاول انتزاع السيطرة. وربما فكرت أنه من اللطف أن ترفض بسبب شيء خارج سيطرتها وهو معصمها المكسور.

وبالرغم من أنه في الحالتين كانت رسالة الأم واضحة ومفهومة تماماً، إلا أن نانسي وسلفيا شعرتا بالإحباط بسبب طريقة كلام الأم. نانسي تعتقد أن رفض أمها في التصريح بما تريد هو سبب في الدوامة المجنونة. وسلفيا كانت محبطة لأنها تعتقد أنه كان من الخطأ قول عكس ما تعني، آملا من الآخرين أن يستجيبوا إلى ما لم تقل. يبدو أنه من الواضح لهما بأن تقرير ما تود بوضوح ليس فقط عادة مفضلة، بل صادقة وصحيحة. ربما تكون نانسي محبطة من طريقة أمها الملتوية، وربما سلفيا تعتقد بأنها تصلح الموضوع بدلاً من أمها، لو فكرت الاثنتان بالمباشرة واللامباشرة على أنها طرق شرعية وصحيحة لتبادل الأفكار والاتصال لهان الأمر عليهما. في الحقيقة إن اللا مباشرة هي الطريقة الطبيعية في كثير من الثقافات.

«هارو يا مادا» امرأة لغوية من اليابان شرحت في كتابها «ألعاب مختلفة.. قوانين مختلفة». أن التواصل بدون وضع معان في الكلمات موضع تقدير عند اليابانيين الذين لديهم كلمة لتفسير ذلك: «هاراجي» بالمعنى الحرفي «فن المعدة أو الجوف» ووفقاً لياماداً فإن هذا التعبير يعكس العقيدة اليابانية التي تقول: إن كل الكلام مشبوه و«إن الجوف فقط هو الذي يتكلم بالحقيقة». إنه التواصل الصامت والذي يُعدُّ خيالياً ومثلاً أعلى، وهو مهارة مفعمة بالنشاط، يجب صقلها والتدرب عليها كمثل الفن. وبنفس الروح فإن اليابانيين يقدرون بشكل بالغ «الساشي» وهي -

وفقاً لما فسرته ياماداً - «تخمين توقعي»، وهي نوع من فهم للمعاني غير المعبر عنها وهو الشيء ذاته الذي شعرت سلفيا أن أمها مخطئة بتوقعه.

كيف يمكن أن يكون لثقافة كاملة طرق خاطئة للتواصل؟ إنه من الصواب أن نحاول فهم المنطق خلف اللا مباشرة. إن الإصرار على أفضلية قول المعنى بصراحة يركز على مستوى الرسالة في الكلام، كما لو أنه هو المستوى الوحيد الموجود. ولكن التسليم بأن كل قول له مستويان ـ رسالة ورسالة خفية ـ يعني أيضاً بأن اللا مباشرة شيء معقول.

يمضي بدون رأي

وعند إدراكي وجود مستوى الرسالة الخفية في الحديث، صدمت بالتباين في حديث امرأة أخبرتني عن أمها وابنتها. تعليقات تأتي بأوقات مختلفة، ولكن عندما تفهم ككل تكشف عن المنطق وراء طريقة الأم غير المنطقية في التحدث. كتبت لي أودري في بريد إلكتروني: «بأن ابنتها ذات العشرة أعوام، كانت كما لو أنها «رفيقة روحها»، فهي تتجاوب مع كل عاطفة وتعرف ما هي، حتى عندما أحاول أن أضع قناعًا على هذه العواطف فأنا أستطيع خداع الجميع لكن ليس هي». هذه من أكثر الأشياء عجبًا وهبة غير متوقعة للأمومة: أن تحظى بشخص قريب جدًا ومتواصل معك لدرجة أن الرباط يبدو وكأنه يمشي مباشرة من قلبك إلى قلبها.

وفي سياق آخر علقت أودري بأنه بالرغم من أنها تحب أمها كثيراً وتحاول فعل كل ما تستطيع لمساعدتها، فهي تنزعج عندما تتوقع منها أمها معرفة وتوفير ما تريده بدون أن تسألها. مثلاً عندما كانت أودري

مستعدة لتوصيل أمها إلى منزلها في ولاية أخرى بعد أن زارتها، قالت أمها بفظاظة: «هل كان علي حمل حقائبي للسيارة بنفسي؟»

علمت أودري بأنها تعرضت للتوبيخ لأنها خيبت ظن أمها فقالت: «لماذا لم تخبريني بأن حقائبك كانت جاهزة؟ لكنت حملتها عنك»، فردت أمها: «لقد كنت تعلمين بأني أتجهز، وقد سمعتني وأنا أقوم بإنزالها من أعلى السلم». ارتفعت درجة عواطف أودري وقالت: «لقد كنت أقوم بالاستحمام كيف لي أن أسمعك؟!». هنا قامت أمها بتغيير أساس الجدال فقالت: «أنت لم تعودي نفس الشخص الذي كنت عليه سابقاً». أصبحت الآن إدانة الأم ليست معينة فقط (بسبب فشل أودري بحمل الأمتعة) لكن أصبحت عامة وهي» عدم كون أودري الشخص الذي كانت عليه» وهذا يعني أن أودري أصبحت أسوأ مما كانت عليه. شعرت أودري بالعجز عن الدفاع عن نفسها ضد هذا الحكم القاسي وقالت منتقمة: «ولا أنت أيضاً».

وعندما يسمع أحدهم هذا التبادل فإنه يمكنه أن يستنتج كما استنتجت أودري بأن أمها غير معقولة: ذلك أنها كانت قد غضبت على ابنتها لعدم قيامها بخدمات لم تطلبها منها في الأصل. وأن ابنتها لم تكن لتستطيع معرفة ما احتاجته أمها. ثم عندما تم مجابهتها بعدم عقلانية شكواها، قامت بالتغيير إلى اتهام مبهم، ولكن مدمر، وهو اتهام ابنتها بأنها أصبحت إنسانة سيئة. كيف لنا أن نعقل هذه السلوكيات المجنونة؟ إن تعليق أودري على ابنتها يوفر لنا رؤيا داخلية للأسباب التي تقع تحت اللاعقلانية الظاهرة لأمها. إن أودري تمجد الرابط الذي تشعر به مع ابنتها، الرابط الذي هو دليل فهم ابنتها لمشاعرها غير المعبر عنها. وعلى كل حال فإن أي إنسان يستطيع معرفة عواطفك ويعبر عن احتياجاتك

إذا عبرت عنها بصـراحة ووضـوح. ولكن فقط الإنسان الذي بينك وبينه رابط خاص يستطيع أن يشعر بالعواطف التي لا تعبر عنها بالكلمات. وهذه هي الرسـالة الخفية الغالية لِلأَّمباشـرة، والتي تثمنها كثير من النساء في العلاقات القريبة.

تماماً كما يحدث عند شرائك لهدية، فإن أي أحد يمكنه شراء الهدية التي تريدها إذا قلت له ماذا تريد. ولكننا نادراً ما نطلب طلباً جلياً كهذا. (إن هناك استثناءات، فقد قالت لي امرأة: إنه بعد عدة مناسبات أهداها زوجها فيها مجوهرات ثمينة لم تعجبها، فإنها أسست طريقة أرضت الطرفين. عندما يقترب عيد ميلادها فإنها تشتري لنفسها قطعة مجوهرات وتري زوجها الهدية الرائعة التي قد اشتراها لها). إن التلميح بالنسبة لمعظمنا واضح وجلي كوضوح ما نريد، لأن ما نريد هو ليس الهدية المتمثلة في «الشيء»، ولكن الهدية التي تدل على أن هذا الشخص يعرفنا حق المعرفة لدرجة أنه يستطيع اختيار هدية تعجبنا، ومهتم بنا لدرجة أخذ وقته في إحضارها. وفي كلمات أخرى فإن الهدية هي الرسالة، وهي جميلة ولكن ما نثمنه حقًا هو الرسالة الخفية للألفة والوئام عندما يفاجئنا أحدهم بالهدية المثالية.

هذا هو المنطلق خلف أسلوب اللامباشرة للتواصل وهذا هو المنطق الذي ربما يجعل شكوى أم أودري غير العقلانية غير مفهومة. لو أن أمها كانت قد سألتها أن تحمل لها الأمتعة إلى السيارة لكان تم لها ذلك، ولكنها عند ذلك لا تحصل على الرسالة الخفية: الدليل على أن ابنتها تفكر في احتياجاتها، وتهتم لدرجة أنها تنجزها بدون أن يطلبها أحد. ربما تفتقد أم أودري لقراءة مشاعرها، وهو الشيء الذي تثمنه أودري كثيرًا في ابنتها،

وربما هذا بالضبط ما ترفضه أودري الرابط القريب جدًا، والذي يصل بين أمها وبينها، والذي يذهب مباشرة من القلب إلى القلب الآخر.

كثير من النساء لا يشعرن بالراحة مع هذا الرابط عند تقدمهن في السن، لأن المرأة هنا لا تشعر أنها تستطيع أن تعوض تعاسة أمها سواء بتوفير الرفقة أو عن طريق تكييف حياتها الخاصة لتتوافق مع رضا وتوقعات أمها.

ربما يكون السبب أيضاً أن أسلوب الحديث بين أودري وأمها يختلف من واحدة لأخرى حيث إن أمها تميل إلى اللا مباشرة في الحديث - خصوصاً عندما تريد فرض طريقتها، وأسلوب أودري الاعتيادي هو المباشرة نسبيًا.

من الممكن ألا يكون الاختلاف هنا صدفة غير محظوظة. فأودري تعتقد أنها طورت أسلوبًا مباشراً على وجه الخصوص، بعدما شعرت بتحطيم أسلوب أمها اللا مباشر.

الحديث في المشكلات يعرضك للمشكلات

إنه من المكر الاعتقاد بأن التعبير عن الرغبات بطريقة غير مباشرة شيء ثانوي. وأن المباشرة والصراحة أكثر تفضيلاً وأكثر صدقاً وهو اعتقاد شائع بين أوساط الأمريكيين العاديين. ولكن للأسلوب المباشر في الحديث صفات مميزة في حديث الرجال أكثر من النساء. (هذا لا يعني أن الرجال لا يستخدمون الأسلوب اللا مباشر. إنهم يميلون فقط لأن يستخدمونه في سياق كلام مختلف، مثل الاعتراف بالذنب والجهل).

إننا جميعا نميل إلى إساءة الفهم والتخفيض من قيمة أساليب الحديث التي لا نتفق معها. إن السلوكيات التي تعكس أساليب الرجال هي

موضع احترام وتقدير بشكل واسع في المجتمع أكثر من السلوكيات التي تعكس أساليب النساء. لذا فإن ميل الأم أو البنت للأسلوب اللا مباشر عند قيامها بطلب شيء يعد طريقة ثانية لأن تجد فيها المرأة نفسها غريبة ومنعزلة في بيتها. والشيء نفسه يحدث في كثير من أساليب الحديث النموذجية للمرأة. بالإضافة إلى الطريقة الأساسية لاستخدام الحديث في خلق حلفاء أو تبادل التفاصيل التي تصف الأحداث اليومية.

قام باحثون بدراسة الحوار الذي يدور على مائدة العشاء في الطبقات الوسطى للعائلات الأمريكية، ولاحظوا طقساً من الممكن أن نسميه «الإخبار عن يومك». ووفقًا للغوية «شوشانا بلومكولكا» فإن هذه طريقة شائعة في بدء الحوار حول مائدة العشاء في الطبقات الوسطى للعائلات الأمريكية، لكنها لم تلاحظها في العائلات الإسرائيلية.

إلينور أوش وكارولين تيلير - المتخصصتان بعلم الإنسان - قامتا بتصوير وتحليل العائلات الأمريكية حول مائدة العشاء. وفيها لوحظ أن الأم عادة هي من يشجع الأولاد على «إخبار الوالد عن أحداث يومهم». وهي تخبرهم عن يومها أيضاً.

وجدت المتخصصتان أيضاً أن وصف الأمهات ليومهن ـ كما هي الحال بكل حوارات النساء مع صديقاتهن ـ عادة ما يتضمن المشكلات التي حدثت، والتي من الممكن أن تناقش وتعين وتفهم وتستكشف بواسطة أعضاء العائلة الأخرى.

قامت عالمة الاجتماع جيل جيفرسون بتسمية هذه الأنواع من الحوارات بـ «حديث المشكلات».

إن «حديث المشكلات» شائع في أوساط النساء أكثر من الرجال وبالنسبة للنساء فإن الحديث عن تجارب يومهن هو ما أطلق عليه ـ حديث الألفة ـ وهو طريقة لاستخدام الحديث في تأسيس التواصل. وحديث المشكلات هو نوع من حديث الألفة، حيث إنه يدعو الشخص الآخر إلى التعبير عن التعاطف وإبداء الفهم وسرد تجارب مشابهة. وعلى كل حال فإن كثيراً من الرجال يشعرون بأن الحديث عن المشكلات يجعلهم يبدون ضعفاء وربما هذا هو الأهم. إن كثيراً من الرجال يفضلون عدم الحديث عن المشكلات التي حدثت في العمل لأن الحديث عنها يعيد شعور القلق والتعكير الذي شعروا به سابقًا.

وكنتيجة لهذا سوف يبدو كما لو أنهم جروا أوساخ يومهم إلى المنزل، أو فشلوا في مسح أحذيتهم قبل دخولهم للبيت. إنهم يفضلوا أن يستمتعوا بالراحة في منزل خال من الخطر، حيث إنه ليس عليهم التفكير بمشكلات العمل.

اختلاف هذه العادات المتعلقة بحديث المشكلات تؤدي لعدم التوازن في العائلة. إذا كانت الأم تتكلم وحدها عن المشكلات التي تعرضت لها خلال يومها والأب في المقابل لا يتكلم فستكون النتيجة أن الأم ستعاني من مشكلات أكثر وثقة بنفسها أقل من الأب. وكثير من الرجال لا يميلون إلى الحديث بهذه الطريقة لأنهم يعتقدون أنه عندما تعيد المرأة سرد المشكلات فهي حتما تطلب المساعدة في حلها. لم إذاً تتحدث عنها؟ ولهذا يقدم الرجال عادة الحل بكرم. ومن ثم إستراتيجيتها الكونية تنتهي بأن تحدد من وجهة نظر الرجل. وهذا الفهم الخاطئ لحديث الألفة الخاص بالمرأة عادة ينتج عنه ظهور الأم بمظهر عدم الثقة بالنفس أمام عائلتها، أو أن تظهر حتى على أنها أقل كفاءة وأهلية من زوجها. وهذه النتيجة كانت

قد وصفت على لسان إحدى تلميذاتي التي قالت: إن والدا سيليا يعملان بنفس الحقل، والدها طبيب وأمها ممرضة. وكلاهما يعمل في المستشفى. وكلاهما يمر بكثير من التحديات يوميا. لكن أم سيليا تخبر عائلتها مرارًا عن الحالات التي عملت عليها والمسائل التي حدثت بين زملائها. والد سيليا والذي نفترض أنه يتصارع مع تحديات مساوية لا يتحدث في المنزل أبدًا عما يحدث في العمل. سيليا وأخاها يترجمون حديث أمها عن العمل بأنه إشارة لعدم الشعور بالأمان، ودلالة على أنها تحتاج مساعدة في مواجهة تحديات يومها في العمل أو إعادة تأكيد أنها تصرفت بشكل جيد حيال هذه التحديات. وهذه نسخة منزلية لكننا نجد نفس الأسلوب في الحكم غير العادل على مقدرة النساء في مجال العمل.

إنها طريقة مركزة للحديث تصنع التواصل مع الآخرين، إنها تؤخذ كدليل على حالة المرأة الداخلية كعدم الاستقرار أو قلة الثقة. ونتيجة لاختلاف طرق الحديث فإن كثيراً من العائلات تكرر دعاوى الظلم على طرق النساء في الحديث، وغالبًا ما يؤدي هذا إلى شعور المرأة بالوحدة في العائلة.

هذا التأثير بالتحديد مؤلم للمرأة - نظراً إلى حساسيتها تجاه أي إشارة تشير إلى كونها وحيدة، أو أنه تم التخلي عنها. وهو جزء من ميراث قديم تحاول أكثر النساء الحفاظ عليه منذ الطفولة التي أمضينها في اللعب مع مجموعات البنات.

هذه بعض طرق التواصل التي تشكل العلاقة بين الأمهات والبنات من خلال كونهن نساء وهو يتجلى في طلب صغير تمنت الأمهات طلبه من البنات الراشدات وهو: «لا تتجاهليني».